لقاء قناة المسار بالدكتور إبراهيم الجعفري
2011/4/18
(في ذكرى استشهاد آية الله العظمى السيد محمد باقر الصدر)

المقدم: في البداية نتحدث عن المشهد السياسي والاقتصادي والاجتماعي قبل انطلاق السيد محمد باقر الصدر بثورته التغييرية في العراق؟

الجعفري: انطلق السيد الشهيد (قدس الله نفسه الزكية) بمشروعه، وكان متعدد الأهداف، وكانت حركته متعددة المحاور.. انطلق مفكراً مرجعاً، وانطلق حركياً يستهدف تغيير الواقع، برؤية اجتماعية في الحقول كافة، أما الواقع الذي سبق السيد الشهيد فقد كان واقعاً نستطيع أن نقول إنه بعيد عن القيم الإسلامية بل عموم القيم الدينية.. ومن الناحية السياسية كان واقعاً متخلفاً متمزقاً.. ومن الناحية الاجتماعية كان بعيداً عن الثقافة والقيم.. فوجد السيد نفسه أمام مسؤولية كبيرة لملء هذا الفراغ .. فحاول أن يطرح رؤية متكاملة (دينية - سياسية - اجتماعية) من خلال ثالوث كتبه (فلسفتنا، واقتصادنا، ومجتمعنا) والكتاب الأخير لم يصدر، يريد أن يخاطب المتلقي بأن في الإسلام فلسفة، وأن في الإسلام اقتصاداً، وأن في الإسلام اجتماعاً، فقال فلسفتنا واقتصادنا ومجتمعنا؛ لأنه كان يشخّص أن الناس وصل بهم الحد إلى فقدان الثقة بقدرة الإسلام على حل مشكلات الإنسان.

انطلق السيد الصدر كمشروع، وهذا المشروع أصّله على قاعدة فكرية، وحدّد له آليات أخذت صفة حركة إسلامية.. وهي حزب الدعوة الإسلامية، وأخذت تتفعّل على شكل جماعة العلماء الإسلامية إضافة إلى أنه مارس دوره بشكل مباشر من خلال مخاطبات مباشرة، والوفود التي كانت تتردد عليه على الرغم من أنه كان صغيراً في السن، شاباً لكنه كان يتمتع بمواصفات فذة.

المقدم: لماذا ركز السيد الشهيد على فئة الشباب في ذلك الوقت، ولم يتخذ منحى آخر في استقطاب المجتمع الإسلامي العراقي بأجمعه؟

الجعفري: طبيعة التلقي الشبابي يختلف عن تلقي الأعمار الأكبر، فالشباب هم سرّ التحولات في جميع الأزمان والأحوال:
(نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالْحَقِّ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنُوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَاهُمْ هُدًى) الكهف / 13
وهم الذين يتولون عملية التغيير والإصلاح لجدّيتهم وعدم احتباسهم وأسرهم بالماضي، كما أن الشاب مستعد لأن يتطلع إلى فكر جديد، وله تطلعات وإرادة قوية، وفي الوقت نفسه الشباب ظاهرة تتسع في كل المديات من دون استثناء، فكثيراً ما يقترن اسم التحولات باسم الشباب.

المقدم: نتحدث عن العراق حتى تأسيس حزب الدعوة الإسلامية من ناحية تصاعد المدّ الشيوعي ونمو التيار القومي وعزل العرب عن العالم في تلك الفترة.. كيف كان ذلك؟

الجعفري: عندما سقطت الملكية، وجاءت الجمهورية بالانقلاب والثورة التي حصلت على يد عبد الكريم قاسم في الـ14 من تموز عام 1958 كان حزب الدعوة الإسلامية قد أُسس في ليلة المولد النبوي الشريف عام 1957 أي قبل ثورة تموز بسنة، ولدى السيد الصدر (قدس سره) كلمة عندما حصلت الثورة.. قال: (لو كنا قد أسسنا حزب الدعوة قبل هذه الفترة، وعبأنا الشارع أكثر لكانت الحكومة الجديدة خاطبتنا باستيزار بعض الشخصيات)..
هذا الكلام مسجّل، ومدوّن للسيد الصدر على يد من عاصروه.. بقية التيارات القومية لها تاريخ يسبق الحالة الإسلامية ليس كفكر وإنما كنظرية عمل، وتتمظهر على شكل تيارات تجمعها الحركة القومية العربية سواء حزب البعث أو الحركات القومية الأخرى بتفصيلاتها وتشقيقاتها.. الاتجاه اليساري مجسّد بالحزب الشيوعي العراقي أيضاً هو الآخر كان قد عبّأ منذ فترة طويلة قبل ثورة عبد الكريم قاسم، واستفاد الشيوعيون من حالة التحوّل من الملكية إلى الجمهورية، فامتد بشكل عاطفي، واستقطب الشارع لملء فراغ ربما يكون هو إلى العاطفة أقرب؛ لذلك تحشدت الجماهير بكثرة على شكل الشبيبة الديمقراطي، وما شاكل ذلك؛ فتحوّلت إلى مدّ، وإنما يسمى بالمدّ الأحمر؛ لأنه أخذ الصفة المتعاطفة مع الاتجاه اليساري.

المقدم: هل كان السيد الشهيد لوحده في مواجهة هذه الأفكار في ذلك الوقت؟

الجعفري: أكيد أن السيد الصدر (رحمة الله عليه) في الوقت الذي يكون هو الرقم الأبرز في مجال هذا التصدي إلا أن ذلك لا يعني أنه كان بمعزل عن بقية العلماء والمراجع والفقهاء، نعم.. قد يتفاوتون في الاندفاع لكنه كان الرقم الأبرز الذي أخذ على عاتقه تبني هذه النظرية والاضطلاع بهذه المهمة الصعبة.. كانت في ذلك الوقت مرجعية السيد الحكيم (رحمة الله عليه) والسيد الحكيم كانت له مكتبات عامة في مختلف المساجد تسمى مكتبة آية الله الحكيم أو الإمام الحكيم (رحمة الله عليه)، وكان ثمة تعاون على هذا الصعيد في الوقت التي كانت الدعوة هي من يحرّك مواكب الجامعة، وتحديداً الشهيد الحاج أبا عصام والحاج صاحب دخيل.. فمثلاً يكتب القصيدة السيد داود العطار (رحمة الله عليه)، والكلمة يكتبها السيد الصدر (قدس الله نفسه)، ويلقيها السيد محمد باقر الحكيم؛ فتجد أنك أمام منظومة متكاملة العناصر، تضفي على هذا الأداء أصالة الفكر والعاطفة.

المقدم: دور السيد الشهيد في الحوزة العلمية، وأبعاد السيد في الموقفين الديني والسياسي؟

الجعفري: حين نتحدث عن الحوزة العلمية تحديداً من ناحية المناهج فهي تتميز بعلم الأصول.. أصول الفقه منطقاً للفقه، وكذلك في الفقه.
السيد الصدر (رحمة الله عليه) كان صاحب مدرسة أصولية، وصاحب المدرسة يختلف عن صاحب وجهة نظر.. كان الصدر يختلف عن أساطين الأصوليين في مبانٍ أصولية كثيرة، مثلاً قاعدة (قبح العقاب بلا بيان) كان لديه وجهة نظر تختلف عن السائد، وكذا البراءة العقلية التي يقول بها الكثير من الأصوليين فيما يقول هو بالبراءة الشرعية إلى أن يصل إلى الدليل العقلي، ولديه مبانٍ خاصة به.. فأول مرة كتب (المعالم الجديدة في الأصول)، وأبرز الفرق بين الحركة الإخبارية والحركة الأصولية بعد ذلك عاد مع التوسعة بثلاث حلقات (دروس في علم الأصول)، ويقول في عبارته الأخيرة: (هكذا يكون الطالب جديراً بحضور البحث الخارج أو يكون مهيّأ لحضور البحث الخارج بجدارة).. أي من ينتهي من الجزء الثاني للحلقة الثالثة يكتفي عن دراسة (الكفاية).. إذن وضع أبحاثاً معمقة اختزنها في الحلقات الثلاث، ومن الناحية الفقهية له مباحث راقية جداً سواء كانت مباحث الخارج أو ما كتبه فقد بسّط الوضع الفقهي وكتب (الفتاوى الواضحة)، ووضعها بين يدي المكلف والمتلقي حتى يبدأ بفهمها، ولا يكون أمام طلاسم لا يستطيع تطبيقها، وسماها (الفتاوى الواضحة) وهي فعلاً واضحة.

المقدم: متى بدأت المواجهة الفعلية بين السيد الشهيد والنظام البعثي، وعلى من اعتمد السيد الشهيد فيها؟

الجعفري: السيد الصدر صاحب مشروع فكري، ولم يكن منظّرا فقط، وهذا المشروع له آليات، وأراد أن يحوّله، فكان من الطبيعي أن يثير من لهم مشاريع مضادة لهذه الدولة، ولهم مشاريع بديلة سواء كان مشروعاً قومياً أو مشروعاً ماركسياً شيوعياً أو مشروعاً ليبرالياً في ذلك الوقت.. فنحن أمام صاحب مشروع جنّد حياته لأجل إقامة الدولة العادلة..
السيد الصدر لم يحصر نفسه في بحث معيّن، وإنما امتد، ووظّف طاقاته الخلاقة في أكثر من جانب بمقدار ما كانت أفعاله تتحرك في هذه الآفاق يثير ردود فعل في الآفاق نفسها؛ لذا بدت القضية وكأنها عراقية المواجهة، ولكن بكل تأكيد هي إقليمية ودولية الدوافع.. السيد الصدر له رؤية بعيدة الأمد (استراتيجية)، وهذا أثار ردود فعل كثيرة وكبيرة جداً، فبدأوا يخططون له..
أعتقد أن التنفيذ والجريمة ارتُكِبت بيد عراقية، لكنها بكل تأكيد بقرار أجنبي.

المقدم: هل كان هناك تأثير للثورة الإسلامية الإيرانية في الوضع العراقي، وما هي ردود الفعل، وما حصل في العراق وموقف السيد منها؟

الجعفري: أود أن أثبت في هذا المقطع من الحديث حقيقة.. مثلما ثبّتنا أن انطلاقة حزب الدعوة الإسلامية وتأسيسه من قبل السيد الصدر (قدس الله نفسه) لم يكن ردة فعل على ثورة تموز 1958، وإنما كانت فعل ومبادرة سبقتها بسنة على الأقل.. وهي ليست مسألة سنة ففي عمر الزمن قد تكون قصيرة، لكنها في التقييم ليست ردة فعل وعملية تفريخ سياسي ما حصل بعد عام 1958 إنما هو عملية سبقت ثورة تموز.. هذا أولاً، وثانياً حزب الدعوة الإسلامية نادى بمسألة إقامة دولة، واعتماد مبدأ المرحلية لإقامتها قبل أن تقوم الثورة الإسلامية في إيران لئلا تكون مناداة السيد الصدر والدعوة صدى لصوت الثورة الإسلامية على جلالة شأنها وروعة إنجازاتها..
عام 1974 قدّم حزب الدعوة الباقة الأولى من الشهداء.. الشهداء الخمسة الشيخ البصري وإخوانه، وهذا يعني أننا كنا في أتون المواجهة قبل أن تندلع الثورة الإسلامية في إيران.

المقدم: كيف كان خطابه السياسي في زمن كان يصعب الحديث بكلمة سياسية واحدة.. كيف كانت التوجهات.. من الذي يقوم بنقل هذه التصريحات والأحاديث من السيد إلى عامة الناس؟

الجعفري: هناك آليات متعددة منها: أنه أعطى نظريته بحزب الدعوة الإسلامية وتحديداً في النشرة الأولى التي هي نشرة الأسس.. إقامة الدولة الإسلامية.. وهذا يتطلب أن يمرحل العمل، وكل مرحلة لها خصوصياتها، وتنتقل بطريقة طبيعية وتدريجية.. في الوقت نفسه كان يوصل هذه الثقافة أولاً بالتنظير المدوّن بالنشرة.. ثانياً في أحاديثه الخاصة واتصالاته.. ثالثاً عن طريق وكلائه.. رابعاً بالخطاب العام.. خامساً بالكتب؛ فأصبحت لدينا ثقافة جديدة يخاطبون الناس فيها بلغة بناء المجتمع الصالح.. بناء الأسرة الصالحة، والمواطن الصالح، ووحدة بناء المجتمع؛ فأصبح العالم والشعب العراقي يتعاطى لغة جديدة، وكان يحس بحالة العطش أنه كان يحتاج هذه الثقافة ولم يكن يوجد المولّد الثقافي والمنتِج الثقافي الذي يستجيب إلى هذه الرغبة فسرعان ما انتشرت كانتشار النار في الهشيم، واستيقظ النظام على طبول الفكر الجديد، ووجود فكر إسلامي، وثقافة إسلامية.

المقدم: هل وُلِد السيد في زمن ليس زمنه؟

الجعفري: هذا أكيد بدون تردد.. قد لا يكون الأول، ولا يكون الأخير.. إن الذين قادوا مجتمعاتهم لو لم يكن لديهم رؤية مستقبلية أو فكر مستقبلي وتنظير للعبور إلى المستقبل لما استطاعوا أن يقودوا..
ماذا تعني قيادة المجتمع؟
تعني أن يفكر القائد بأمور مستقبلية لا يراها الآخرون؛ لذا طبيعة الإنسان القيادي أنه يريد أنه يرحل بمجتمعه مما هو عليه إلى مستوى آخر.. السيد الشهيد تراكمت لديه عدة ملكات، وكان أبرز صفة له أنه يستشرف المستقبل، وينظّر له، ويستخدم ثقافته وكل خزينه، وكان يستحضر التاريخ، ويستشرف المستقبل في آن واحد.. عندما تسمع له خطاباً تجد مَدَيين مدى فيه حمولة تاريخية، ومدى آخر فيه بُعد مستقبلي.

المقدم: نقول إنه غيّر حركة التاريخ في الداخل والخارج؟

الجعفري: التاريخ فيه مفاعلات، وهو حيادي، وفيه أناس طغاة صنعوا تاريخاً سيّئاً وتاريخاً ظالماً.. وآخرون علماء ومفكرون اتصفوا بالجانب الإنساني، وصنعوا تاريخا مُشرقاً.. التاريخ وعاء ومن يملأ هذا الوعاء السيد الصدر (قدس الله نفسه) وهو دفع بالتاريخ وعجلة الزمن أشواطاً إلى المستقبل، فربما كان الكثير يتصور أن السياسة لا تلتقي مع الإسلام، وكثير يتصورون أن الإنسان عندما يكون متفرغاً للعلوم الفقهية والعلوم الدينية لا يتحدث بالسياسة، وكثيرون يتصورون أن الإسلام لا يتدخل في شؤون الأسرة والسياسة والاقتصاد وما شاكل ذلك؛ لذلك أضفى السيد بحركته أنه بدأ يخاطب الأجيال القادمة، ونحن اليوم نشعر بقيمة ذلك الفكر؛ لأنه ما وضع بذوره السيد في ذلك الوقت نحن نجني ثماره اليوم.

المقدم: متى بدأت نظرية العمل السياسي عند السيد الصدر تحديداً؟

الجعفري: منذ أن صمّم على تأسيس حزب الدعوة الإسلامية كانت قد اختمرت لديه فكرة إقامة دولة..
ماذا نقصد بالنظرية السياسية؟
كلمة السياسة تعني الدخول في شأن الحكم.. معارضاً أو حاكماً.. تعني أنه أصبح سياسياً، فعندما تريد أن تدخل في التعامل مع مفردات الحكومة إذا كنت معارضاً.. أنت سياسي.. وإذا كنت قوّضت النظام الظالم، وأنشأت نظاماً بديلاً أصبحت أنت قدر النظام، أو قدراً في النظام، فأنت حاكم أو جزء من الحكم، وأنت سياسي.. مثلما نحن الآن..
السيد الصدر (رحمة الله عليه) كان سياسياً ولديه نظرية.. ماذا نقصد بالنظرية؟
النظرية المقصود بها مجموعة الأفكار والتصورات والمفاهيم التي تتولى إحداث نقلة من واقع بعيد إلى واقع التطبيق القريب.. إذا حضّرتها بالاقتصاد فهذه نظرية

اقتصادية، وإذا في الحالة الاجتماعية فهذه نظرية اجتماعية، وبالسياسة فهذه نظرية سياسية..
هل كان للسيد الصدر نظرية سياسية؟
الجواب: نعم.. وضعها ومرحلها.. ومن أبرز صفات وميزات نظرية السيد الصدر بعدما اتفقنا على أن له نظرية سياسية.. أولاً استهداف المجتمع ككل من دون تبضيع وتجزئة، فهو يخاطب المجتمع، ونظريته ليست ممذهبة أي لا تستثني طائفة دون أخرى، وليس سراً على أحد لأن الصدر مرجع بل من كبار مراجع الشيعة، لكن ما وضع نظريته لأن تنحصر في الحيّز الشيعي.. إنما النظرية لديه أن يقيم دعائم العدل الاجتماعي لكل المجتمع العراقي في الإطار الإسلامي، وفي الإطار الوطني العراقي، ولم يُقص ِأبناء الديانات الأخرى في خطابه.. إنما يخاطب السنة والشيعة، ويخاطب الوطنيين العراقيين.

المقدم: كان السيد الصدر يخاطب الجميع سواسية سنياً أو شيعياً أو من غير قومية.. كيف كانت تلقيات الطوائف العراقية والقوميات؟

الجعفري: السيد الصدر كمعطٍ يريد أن يشيع نظاماً عادلاً.. يريد أن يستخدم أسلوب الحوار، ولم يستخدم أساليب القنص والقتل والاغتيالات.. السيد الصدر يريد أن يستخدم الثقافة ولديه حمولة ثقافية، ويعِد بحلول للمشاكل.. عندما تستبقه قبل أن تقوم دولة ونظام جديد تستبقه، وتقول له ما هو نظام البنك؟
يعطيك أطروحة البنك اللاربوي.. فهو رجل ذو فكر جاهز يطبّقه كله، أو يطبّق جزءاً منه حسب الظرف الذي يعيشه.. قائل بالتعدد، وتكامل الثنائيات.. السيد الصدر يخاطب المرأة ويخاطب الرجل، ويقدّم نموذجاً..
لنا الشرف أن السيد الصدر مرجع شيعي، لكن أمير المؤمنين (عليه السلام) كان سيد الأوصياء، وحمل تلك الأمانة، وكان يخاطب الجميع.. يخاطب الآخر المخالف له سواء كان في داخل الدين أو خارج الدين.. فكر ذو طابع إنساني حسب نظرية التمرحل، وليس بشكل مفاجئ؛ حتى تصبح قاعدة شعبية، وتنمو، وتعطي انعكاساتها كنسق صاعد على القيادات المتحركة.
السيد الصدر مرجع شيعي، وما كان طائفياً إنما كان مسلماً ومنفتحاً على الآخرين.. وكان عربياً وليس شوفينياً، وكان نجفياً وليس مناطقياً، وكان يتفاعل بطريقة إنسانية، ويحاول ملء كل الأوعية من حوله بطريقة حضارية.. الفكر الخلاق يتجدد والسيد الصدر الآن لو قضى القدر والمشيئة الإلهية أن يبقى بكل تأكيد ستكون له إضافات، وتطوير، وما شاكل ذلك.

المقدم: ما تداعيات استشهاد الصدر على الداخل العراقي، والوضعين الإقليمي والعربي بشكل عام؟

الجعفري: استشهاد السيد الصدر، يذكرني بقول الشاعر:

اليوم نامت أعين بك لم تنم
وتسهّدت أخرى فعز منامها

السيد الصدر كما هو شأن كثير من المفكرين والمبدعين والأفذاذ لهم مريدون وعشاق لفكرهم ومواقفهم ولهم أعداء.. فأصحاب الفكر والمعرفة وقد التقيت بعدد غير قليل منهم كانوا يتغنون به، ويلتصقون بفكره.. أنا أذكر أحد كبار مستشاري أحد زعماء العرب التقيت به عام 1984، دار حوار بيني وبين رئيسه في ذلك الوقت، فسألني خارج اللقاء عن ثقافتي الاقتصادية، فقلت له أقرأ للسيد الصدر.. قال هذا الرجل! أوصي طلابي أن يقرأوا (اقتصادنا)، وما شاكل ذلك.. الآن السيد الصدر غزا المكتبات، واستطاع أن يوصل صوته وفكره إلى ذلك، واقتحم آفاقا معينة.. السيد الشهيد الصدر ضاق به عصره، فاتسعت له العصور اللاحقة.. فهم لهم أهدافهم السياسية، وسيّسوا أهدافهم مع السيد الصدر، فكانوا يخافون منه.

المقدم: ظهرت الكثير من المشاريع السياسية التي تأطّرت بمفاهيم السيد الشهيد، من سياسيين عراقيين موجودين الآن في المعترك السياسي العراقي.. برأيك لماذا اتخذت هذه المشاريع منحى شخصياً أو لمصلحة مجموعة معينة، وهم تابعون لخطه الشريف؟

الجعفري: لا يمكن أن يُشخصَن الفكر.. عندما نقول: لدينا مشروع يجب أن لا نجعل المشروع مشروعاً شخصياً لأحد، نعم.. نحترم الشخصيات التي تكون شخصيات مشروع، لكن لا تحاول أن تحوّل المشروع إلى مشروع شخصي.. هناك فرق بين شخصية المشروع ومشروع الشخصية.. مشروع الشخصية يعني الكل أصبح جزءاً من شخصية، وهذا لا نتقبّله، أما أن تكون شخصيات لها قابليات خلاّقة تكون شخصيات المشروع.. إذن المشروع أكبر.. السيد محمد باقر الصدر كتب مشروعاً أكبر من المقطع الزمني الذي عاشه، وأكبر من الجغرافية التي وُلِد فيها.. فعلى الآخرين أن يُثروا، ويجرّبوا حظهم، وهذا لا أعتبره ضعفاً.. أنما أعتبره مدارس فكرية واجتهادات تعبّر عن طريقة فهم خاصة لفكر السيد الصدر، ثم إن السيد الصدر ليس شيئاً غير الإسلام، إنما هو عالم إسلامي له قدرات على الاستنباط والتنظير والتفكير.. أما نحن فنستفيد من علمه، فضلاً عن أن الفكر يتقبل الآخر، ولك أن تقول هكذا أفهم السيد الصدر، وليس لك أن تحتكر السيد الصدر.
مشكلتنا ليست في الإسلام نفسه، وإنما المشكلة في طريقة الفهم.. في المنهج المتبع.. ففي بعض الأحيان يحدث اشتباه، فنسقط الهدف ضحية الوسيلة المعتمدة.. أنا أتصور أن السيد الصدر نذر حياته لفكر إسلامي مؤنسن؛ حتى يخاطب الجميع من دون استثناء.

المقدم: لو كان السيد الشهيد حاضراً في هذا الوقت، ماذا ستكون كلمته للسياسيين العراقيين والشعب العراقي؟

الجعفري: يدفعهم باتجاه إقامة الدولة العادلة، والترفع عن الخلافات الجزئية، ويحثهم على الإبداع، ومسابقة الزمن في تحريك كل ما من شأنه أن يلبي حاجة الناس على مستوى تحقيق المشروع الاجتماعي، وحل المشاكل الاجتماعية، وتحقيق الوحدة بين الناس، ووعي المشترك في كل التنوعات الموجودة؛ حتى يدفع بهذا الاتجاه، واستخدام اللغة الحضارية والإنسانية، ومخاطبة العالم في هذا العصر.